OPEN ACCESS
Received: 29 -04 -2025
Accepted: 23- 07-2025

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

Patterns and Functions of *Mā* in the *Diwan* of Hatim al-Ṭa'ī: A Syntactic-Semantic Study

Dr. Aisha Qasim Ali Shamakhi *

aalshamakhy@jazanu.edu.sa

Abstract

This research investigates the syntactic and semantic functions of the particle *mā* in the *Diwan* of Hatim al-Ṭa'ī, a leading pre-Islamic poet of the *ḥujjah* era, with a focus on its diverse patterns and roles in meaning construction. After a brief overview of the poet and his corpus, the study examines particle *mā* in its negative, infinitival, and pleonastic uses, and nominal *mā* in its relative, conditional, interrogative, and other forms, supported by applied analyses of selected verses. The findings reveal that this diversity not only enriches meaning and reinforces emphasis but also contributes to maintaining metrical balance in poetry. Furthermore, the study highlights Hatim's distinctive use of the Ḥijazi *mā* functioning like *laysa*, showing a stylistic alternation between application and non-application, which reflects individual choice rather than strict conformity to a specific dialect. This nuanced treatment challenges conventional grammatical interpretations and underscores the flexibility of linguistic usage in early Arabic poetry, thereby offering a fresh perspective on the role of *mā* in shaping both meaning and poetic form.

Keywords: Ḥijazi *mā*, Tamimi *mā*, Application, Non-application, Conditional *mā*.

* Associate Professor of Syntax and Morphology, Department of Arabic Language, College of Arts and Humanities, Jazan University, Kingdom of Saudi Arabia.

Cite this article as: Shamakhi, A. Q. A. (2025). Patterns and Functions of *Mā* in the *Diwan* of Hatim al-Ṭa'ī: A Syntactic-Semantic Study, *Arts for Linguistic & Literary Studies*, *7*(3): 301 -322. https://doi.org/10.53286/arts.v7i3.2721

© This material is published under the license of Attribution 4.0 International (CC BY 4.0), which allows the user to copy and redistribute the material in any medium or format. It also allows adapting, transforming or adding to the material for any purpose, even commercially, as long as such modifications are highlighted and the material is credited to its author.

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 2025/04/29م
تاريخ القبول: 2025/07/23م

أنماط "ما" ووظائفها في ديوان حاتم الطائي: دراسة تركيبية دلالية

د. عائشة قاسم علي شماخي *
aalshamakhy@jazanu.edu.sa

الملخص:

تُبرز هذه الدراسة الأهمية المحورية لأداة المعاني "ما" في العربية بتعدد أنماطها ووظائفها وقدرتها على توجيه المقاصد وإثراء التراكيب. وانطلاقًا من ديوان حاتم الطائي -أحد شعراء الطبقة العليا في عصر الاحتجاج- تهدف الدراسة إلى الكشف عن صور "ما" الحرفية والاسمية وأثرها في بناء المعنى، وقد اشتمل البحث على مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة. جاء التمهيد ليقدِّم تعريفًا مُوجزًا بالشاعر وديوانه. ثم خُصِّص المبحث الأول للحديث عن "ما الحرفية" وأنماطها، مع دراسة تطبيقية لنماذج من الديوان، وتناول المبحث الثاني (ما) الاسمية وأنماطها مع دراسة تطبيقية مماثلة، وأظهرت النتائج تنوعًا وظيفيًا ودلاليًا واسعًا؛ فالحرفية جاءت نافية ومصدرية وزائدة، والاسمية تمثلت في الموصولة والشرطية والاستفهامية وغيرها، وأسهم هذا التنوع في تقوية الدلالة وتوكيدها وفي حفظ الوزن الشعري. كما بيّنت الدراسة أن تعامل حاتم مع "ما" الحجازية العاملة عمل "ليس" اتسم بمرونة بين الإعمال والإهمال وهو ما يجعل الأمر (الإعمال والإهمال) اختيارًا أسلوبيًا فرديًا لا التزامًا صارمًا بلهجة قبيلة بعينها، ويعيد قراءة الرأي النحوي التقليدي ضمن رؤية أكثر مرونة للاستعمال اللغوي في الشعر الجاهلي.

الكلمات المفتاحية: ما الحجازية، ما التميمية، الإعمال، الإهمال، ما الشرطية.

* أستاذ النحو والصرف المشارك، قسم اللغة العربية، كلية الفنون والعلوم الإنسانية، جامعة جازان، المملكة العربية السعودية.

للاقتباس: شماخي، ع. ق. ع. (2025). أنماط "ما" ووظائفها في ديوان حاتم الطائي: دراسة تركيبية دلالية، *الآداب للدراسات اللغوية والأدبية*، *7*(3): 301- 322 https://doi.org/10.53286/arts.v7i3.2721

© نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة Attribution 4.0 International (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أُجريت عليه.

المقدمة

تُعَدُّ أدوات المعاني من أبرز عناصر التركيب في اللغة العربية، إذ يتكئ عليها النظام النحوي والدلالي في بناء الجمل وتحديد المقاصد. وقد أشار المرادي (1992، ص 3) إلى هذه الأهمية البالغة في مقدمة كتابه "الجنى الداني في حروف المعاني" بقوله: "فإنه لمَّا كانت مقاصد كلام العرب، على اختلاف صنوفه، مبنيًّا أكثرها على معاني حروفه، صُرفت الهمم إلى تحصيلها، ومعرفة جملتها وتفصيلها. وهي مع قلتها، وتيسر الوقوف على جملتها، قد كثر دورها، وبعد غورها، فعزَّت على الأذهان معانيها، وأبَت الإذعان إلا لمن يُعانيها". ولهذا السبب، أولاها النحاة واللغويون عناية خاصة، فجمعوا ما تفرق من شواهدها في مصنفات مخصوصة، وبيَّنوا وظائفها ومعانيها، بعد أن كانت مبثوثة في كتب المفسرين ودواوين الشعراء ومؤلفات النحو واللغة. ومن أبرز هذه المصنفات والمؤلفات: "اللامات" لأبي القاسم الزجاجي، و"منازل الحروف" للرماني، و"الأزهية في علم الحروف" للهروي، و"رصف المباني في شرح حروف المعاني" للمالقي، و"مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" لابن هشام الأنصاري، و"الجنى الداني في حروف المعاني" للمرادي.

ومن بين هذه الأدوات التي حظيت باهتمام خاص، تبرز الأداة (ما)، وهي من الأدوات المشتركة التي تأتي في سياقات متعددة، فتكون حرفًا حينًا واسمًا حينًا آخر، وتتنوَّع دلالاتها ووظائفها النحوية تبعًا للسياق الذي ترد فيه. ففي صورتها الحرفية، تأتي (ما) نافية أو زائدة أو مصدرية، وقد تعمل عمل "ليس" في بعض الاستعمالات والتراكيب، أما في صورتها الاسمية، فتأتي موصولة، واستفهامية، وتعجبية، وشرطية، إلخ. وتنبثق أهمية دراستها في الكلام (سواء كان شعرًا أم نثرًا) من قدرتها على الإسهام في إنتاج المعنى وبناء التركيب النحوي في آنٍ واحد، الأمر الذي يجعل تتبَّعها في مدونة لغوية خاصة مجالًا خصبًا للفحص والتحليل.

من هذا المنطلق، جاء هذا البحث الذي يحمل عنوان "أنماط 'ما' ووظائفها في ديوان حاتم الطائي: دراسة تركيبية دلالية"، حيث وقع الاختيار على ديوان حاتم الطائي ليكون ميدانًا لتتبع صور "ما" ودلالاتها ووظائفها، وما تحمله من ثراء وظيفي ودلالي.

وتنبثق أهمية هذا البحث من أهمية الأداة "ما" نفسها، فهي من أدوات المعاني التي تتسم بتعدد الأنماط الدلالية والوظائف النحوية في السياقات المختلفة. كما تتعزز هذه الأهمية من خلال المدونة المختارة، إذ يتناول البحث ديوان حاتم الطائي، وهو أحد شعراء الجاهلية البارزين من طبقة الاحتجاج العليا، ويُعد شعره من المصادر اللغوية المعتمدة في الدراسات النحوية واللغوية. وفضلًا عن ذلك، امتاز هذا الديوان بعدد من السمات القيمية المضمنة في شعره والتي خلَّدت ذكره في العصور اللاحقة، مما يمنح البحث بُعدًا لغويًا وتاريخيًا في آنٍ واحد.

وتتمحور الدوافع الرئيسة لاختيار هذا الموضوع في عدة نقاط، أبرزها:

- أنه لم يسبق دراسة شعر حاتم الطائي من الناحية التي سأقوم بدراستها.
- كثافة ورود الأداة (ما) في ديوانه، مما يوفِّر مادة لغوية ثرية للتحليل.
- تنوع صور (ما) بين الحرفية والاسمية داخل النص الشعري، وهو ما يبرز دورها التركيبي والدلالي.
- الخلط أو اللبس الذي قد يواجه بعض الطلبة والباحثين بين أنواع "ما" وما يترتب على ذلك من تشويش على القيم الدلالية.
- يُضاف إلى ذلك اعتماد ديوان الشاعر ضمن مدونات الاحتجاج عند النحاة، مما يمنح الدراسة موثوقية علمية ويعزز من قيمتها اللغوية.

وفي هذا السياق أيضًا، وضع البحث عددًا من الأسئلة سعى للإجابة عنها، وهي:

- ما الأنماط التركيبية للأداة "ما" في ديوان حاتم الطائي؟
- ما القيم الدلالية لهذه الأداة في ديوان الشاعر؟
- كيف وظف الشاعر هذه الأداة في ديوانه؟

وبناءً على ذلك، يسعى هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف، من أبرزها:

- الكشف عن الأنماط التركيبية للأداة "ما" في ديوان حاتم الطائي.
- بيان القيم الدلالية المتعددة لهذه الأداة في نصوص الشاعر.
- تحليل كيفية توظيف حاتم الطائي للأداة "ما" في بناء خطابه الشعري.
- إبراز ما يترتب على هذا التوظيف من إسهام في إثراء البنية التركيبية والدلالية للنص الشعري الجاهلي.

ولتحقيق هذه الأهداف، اتبع البحث المنهج الوصفي التحليلي، وذلك بوصف الظاهرة اللغوية وتحليلها وتتبع أثرها من حيث الدلالة والتركيب.

وفيما يتعلق بالجهود البحثية السابقة، فإنه على حَدِّ علم الباحثة، لم يتم الوقوف على دراسة أفردت هذا الموضوع بالبحث، غير أنه توجد دراسات تناولت الأداة "ما" بوصفها لفظًا مشتركًا بين الاسمية والحرفية على المستويين التركيبي والدلالي، ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر:

دراسة "حديث (ما) أقسامها وأحكامها" لمحمد المفدى (1980)، و"أصول (ما) في القرآن الكريم" لإبراهيم الدوسري (2003)، و"دلالات (ما) في القرآن الكريم وترجمتها" لمجدي حاج إبراهيم ونور عفيفة (2018)، و"(ما) بين الحرفية والاسمية" لطاهر الطويل (2019).

كما توجد دراسات أخرى اعتنت بشعر حاتم الطائي وديوانه من زوايا مختلفة، مثل: "ظواهر أسلوبية في شعر حاتم الطائي" لمختار عطية (2009)، و"البلاغة الشعرية في ديوان حاتم الطائي" لأحمد شتوي (2014)، و"التجانس الصوتي" لفهد المغلوث (1441هـ)، و"المرأة في حياة حاتم الطائي" لمحمد سعيد عيسى (2024).

أما خطة البحث، فقد اشتملت على مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة. حيث أشارت المقدمة بإيجاز إلى أدوات المعاني، وأهمية البحث وأسباب اختياره، وأهدافه، وتساؤلاته، والمنهج المتبع فيه. وجاء التمهيد ليقدِّم تعريفًا مُوجزًا بالشاعر وديوانه. ثم خُصِّص المبحث الأول للحديث عن "ما الحرفية" وأنماطها، مع دراسة تطبيقية لنماذج من الديوان، وتناول المبحث الثاني (ما) الاسمية وأنماطها مع دراسة تطبيقية مماثلة. وأخيرًا، عُرض في الخاتمة ما توصَّلت إليه الدراسة من نتائج وتوصيات.

التمهيد: التعريف بحاتم الطائي وديوانه

أوَّلًا: ترجمة حاتم الطائي (ت:46 ق هـ = 578م)

اسمه حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن أخزم بن أبي أخزم، الطائي القحطاني، أبو عدي، ويُكنى بأبي سفَّانة، وقيل اسمه: هَزومةُ بنُ عبد الله. أدرك مولد النبي ﷺ ومات قبل مبعثه، وكان فارسًا وشاعرًا جاهليًا.

أما أمه فهي عُتْبة بِنْتُ عَفِيفِ بْنِ عَمْرِو بْنِ أَخْزَمَ، وكانت ذات يسار وسخاء، غير أن إخوتها حجزوا عليها ومنعوها مالها خوفًا من التبذير. وقد نشأ ابنها حاتم على غرارها في الجود والكرم، حتى يُضرب المثل بجوده، فيُقال: (جود حاتميٌّ). وكان من أهل نجد، وزار الشام فتزوج ماوية بنت حجر الغسانية.

عاش حاتم الطائي وقومه في بلاد الجبلين (أجا وسلمى) التي تسمى الآن منطقة حائل (المملكة العربية السعودية حاليًا)، وقد ذكره النبي محمد في بعض الأحاديث. وتُوفي حاتم في عوارض - جبل في بلاد طيئ - عام 578، ودُفِن في توارن، حائل. وقد وُصِف قبره في كتاب ألف ليلة وليلة، ولا تزال بقايا قصره وقبره وموقدته الشهيرة في بلدة توارن. (الزركلي، 2002: 151/2؛ الذهبي، د.ت: 157/5؛ الأغاني، د.ت: 370/17؛ ابن كثير، 2 :212/1986).

ولحاتم شعر كثير، ضاع معظمه، كما وردت أخباره في كتب الأدب والتاريخ. ويقول عنه ابن قتيبة (1423): "وكان جوادًا شاعرًا جيد الشعر، وكان حيث ما نزل عرف منزله. وكان ظفرًا، إذا قاتل غلب، وإذا غنم أنهب، وإذا سئل وهب، وإذا ضرب بالقداح سبق، وإذا أُسر أطلق" (2/ 886).

ثانيًا: التعريف بديوانه

يشتمل ديوان حاتم الطائي على قصائدَ متنوعةِ المواضيع، يأتي في مقدمتها الجود والكرم، وقد أنكَر عليه كثيرٌ من قومه مبالغته في الكرم واتهموه بالإسراف، وكان لا يوافقهم ويرد عليهم في شِعره ويمدح فضيلةَ الكرَم. كما تناول «الطائي» في قصائد أخرى أخبارًا ونوادرَ عن حكايات قبائل العرب، ونظم العديدَ من قصائد المدح، ومن أشهرها قصيدة مدح بها قبيلة «بني زياد». وفي الديوان، الذي طُبع عدة طبعات، ضُمِّنَت مقتطَفات من أخبار «حاتم الطائي» ونوادره.

ومن أبرز طبعات الديوان: ديوان حاتم الطائي بشرح وتقديم أحمد رشاد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986م، ويقع في ست وخمسين صفحة، ويحتوي على ثماني عشرة قصيدة وخمس وثلاثين مُقطَّعة. يبلغ مجموع أبيات الديوان ثلاثمائة وأربعة وسبعين بيتًا، منها مائتان وسبعة وسبعون بيتًا في القصائد، وسبعة وتسعون بيتًا في المقطعات (الطائي، 1986).

المبحث الأول: (ما) الحرفية

أولًا: أقسام (ما) الحرفية

تنقسم (ما) الحرفية إلى ثلاثة أقسام:

(ما) النافية، و(ما) المصدرية، و(ما) الزائدة. (المرادي، 1992، ص322) وتنقسم "ما" النافية إلى: عاملة وغير عاملة.

1. ما النافية

أ- ما العاملة

تعمل "ما" النافية عمل ليس أحيانًا، أي ترفع المبتدأ اسمًا لها وتنصب الخبر، وأطلق النحويون عليها في هذه الحالة "ما" الحجازية؛ لأن الحجازيين، وقيل أهل تهامة ونجد أيضًا، يعملونها عمل (ليس). (المرادي، 1992، ص322؛ ابن عقيل، 1980، ج1، ص303). ومن شواهد إعمالها في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ (يوسف: 31) وقوله أيضًا: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ (المجادلة: 2).

ويقول أكثر النحويين إن بني تميم يهملون هذه الأداة ولا يُعملونها. (سيبويه، 1988: 1/ 57؛ المرادي، ص323؛ ابن عقيل، ج1، ص302). ويجرونها مجرى "هل" ونحوها مما لا يعمل. وكأنهم "رأوها حرفًا داخلًا بمعناه على الجملة المستقلة بنفسها ومباشرة لكل واحد من جزأيها" (ابن جني، 1385: 168/1).

وعملت عند أهل الحجاز، على الرُّغم من أنها حرف غير مختصٍّ وغير المُختصّ لا يعمل، لأنها شابهت ليس في النفي، وفي كونها لنفي الحال غالبًا، كما أنها تدخل على الجملة الاسمية. وتعمل عندهم بشروط، الأول: تأخر الخبر. فلو تقدم بطل عملها. هذا مذهب الجمهور. الثاني: بقاء النفي. فلو انتقض النفي بإلا بطل العمل. كقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾[آل

عمران: 144]. الثالث: عدم اقترانها بإنْ، فلا تعمل في نحو: ما إن زيد قائم. والشرط الرابع: ألا يتقدم من معمول خبرها غير الظرف، أو الجار والمجرور، فإن تقدم غيرهما بطل العمل، نحو ما طعامك زيد آكل. (المرادي، 1992، ص 322- 329؛ ابن عقيل، 1980: 303/1). ومن أمثلة جواز تقدم معمول خبرها إذا كان جارًا ومجرورًا قوله تعالى: ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: 47] فحاجزين خبر ما منصوب (أبو حيان، 2024: 255/4).

ومن أمثلة تقديم معمول خبرها إذا كان ظرفًا قول الشاعر (ابن مالك، 1990: 1/ 370):

بأُهْبــــة حــــرب كُــــن وإن كنــــت آمنًــــا فمــــا كــــلَّ حــــين مَــــنْ تُــــوالي مواليــــا

حيث قدم الظرف (كلَّ) وهي معمول الخبر (مواليًا) على اسم ما (مَن).

وتناول ابن مالك (1990: 372/1، 373) مسألة نصب خبر "ما" إذا توسط بينها وبين اسمها، وأشار إلى أنَّ بعض العرب يجيزون ذلك، مستشهدًا بإشارة سيبويه واحتجاجه على هذا الاستعمال ببيت الفرزدق:

فأصــــبحوا قــــد أعــــادَ الله نعمــــتَهم إذ هــــم قــــريشٌ وإذا مــــا مــــثلَهم بشــــرُ

فقد وقع الخبر (مثلَهم) منصوبًا متوسطًا، مشيرًا في هذا السياق إلى أبي علي الفارسي وأنه استشهد في التذكرة على تقديم الخبر ونصبه بقول الشاعر:

لــــوانَّــــك يــــا حُسَــــيْن خُلِقْــــت حــــرًا ومــــا بــــالحُرِّ أنــــت ولا الخليــــقِ

حيث جعل "بالحر" خبرًا مقدمًا.

وقد وُجِّه على سيبويه اعتراض، مؤداه أن نصب الخبر في بيت الفرزدق غير سائغ؛ إذ لم يسمع في لغة بني تميم نصب الخبر مطلقًا، وحُمل البيت على أنَّ كلمة "بشرُ" مبتدأ مرفوع وخبره محذوف، وأن "مثلَهم" منصوب على الحال. كما قيل إن الفرزدق ربما تكلم به معتقدًا جوازه عند الحجازيين فلم يُصب. غير أنَّ هذه الردود لا تقوى أمام النقاش، لأن جعل مثلَهم حالًا لا يستقيم؛ فالحال فضلة يتم الكلام بدونها، وهنا لا يستقيم المعنى إلا بوجودها. وأما الزعم بأن الفرزدق توهم مذهب الحجازيين، فبعيد؛ لأن الرجل كان له خصوم من الحجازيين والتميميين يترصدون زلاته، ولو وُجدت في شعره مخالفة صريحة لشنَّعوا بها عليه وتناقلها الناس، لتوفر الدواعي إلى ذلك، لكن عدم ورود شيء من هذا النوع دليل على إقرارهم بصحة قوله.

ولسنا نذهب مذهب من خطّأ الفرزدق في هذا الاستعمال زاعمًا أن الفرزدق خالف لغة قومه التميميين الذين لا يعملون "ما" عمل ليس، ولسنا مع النحويين أيضًا في كثرة تعليلاتهم وتخريجاتهم في توجيه إعراب "ما مثلَهم بشرُ" في هذا البيت، كما أشار إلى ذلك ابن مالك في الفقرة السابقة. فإنما فعلوا ذلك لتستقيم لهم قواعدهم ويطرد قانونهم الذي رسموه بأن بني تميم تهمل "ما" دائمًا. والذي نقوله هنا هو أن هذه الاستعمالات استعمالات فردية وليست قانونًا اجتماعيًا صارمًا يلتزم به كل أفراد القبيلة، فلشاعر أو متكلم تميمي أن يهمل "ما" دائمًا، ولآخر أن يعملها تارة ويهملها أخرى، ومثل ذلك نقول في شاعر أو متكلم حجازي، وسيأتي تأكيد هذه النقطة والبرهنة عليها في موضع آخر من هذا البحث.

وممن نقل هذه المسألة أيضًا وآراء النحويين فيها الأنباري (1999، ص 121).

على أن الأعلم الشنتمري (1994) يُورِد بيت الفرزدق ناقلًا احتجاج بعض النحويين على تقديم خبر (ما) منصوبًا، مع أن الفرزدق تميمي. ثم يفسر هذا الاستعمال من ناحية المعنى، فالفرزدق وإن كان تميميًا إنما فعل ذلك لمراعاة المعنى "لأنه أراد أن يخلص المعنى من الاشتراك فلم يبال إفساد اللفظ مع إصلاح المعنى، وتحصينه، وذلك أنه لو قال: (وإذ ما مثلُهم بشرُ) بالرفع لجاز أن يتوهم أنه من باب ما مثلك أحد إذا نفيت عنه الإنسانية والمروءة، فإذا قال: (ما مثلَهم بشر) بالنصب لم

يتوهم ذلك، وخلص المعنى للمدح دون توهم الذم. والشعر موضع ضرورة يحتمل فيه وضع الشيء في غير موضعه دون إحراز فائدة ولا تحصيل معنى وتحصينه فكيف مع وجود ذلك؟" (ص 85، 86)

بل إن ابن مالك (1990: 373/1) نقل رواية عن يونس، من غير طريق سيبويه، تفيد بإعمال "ما" في الخبر الموجب بإلا. وقد استشهد بعض النحويين على هذا بما جاء في قول الشاعر:

وما الدهرُ إلا مَنجنونا بأهله وما صاحبُ الحاجات إلا معذَّبا

وقد لجأ بعضهم إلى توجيه هذا البيت بآراء لا تخلو من تعقيد وتكلف، كما قال ابن مالك، والأولى أن نجعل منجنونا ومعذَّبا خبرين لـ"ما" منصوبين بها، فيلحقانها بـ"ليس" من جهة نقض النفي، كما أُلحقت بها في عدم النقض. ويحتج لهذا الرأي بقول مغلس:

وما حقُّ الذي يعثو نهارا ويسرقُ ليله إلا نكالا

فالمعنى فيه أوضح، والدلالة فيه أنصع على جواز نصب الخبر بإعمال "ما" إذا اقترن بإلا.

وبذلك يظهر أن مذهب يونس في إعمال "ما" على هذا النحو يجد له سندًا شعريًا معتبرًا، وأن ما سلكه بعض النحويين من تأويل بعيد لا حاجة إليه، ما دام الشاهد ينهض بحجيته دون تعسف في التقدير أو المبالغة في التوجيه.

ومهما يكن، فقد اتضح أن كل تلك الشروط محل نظر، وهناك بعض التفصيلات مما لا يعنينا في هذا البحث.

ونخلص إلى أن "ما الحجازية" تعمل عمل ليس فترفع الاسم وتنصب الخبر سواء تقدم الاسم أو الخبر وسواء انتقض النفي وصار موجبًا أم لم ينتقض؛ كل هذا يخضع للاختيار الفردي. وهو ما نميل إليه قياسًا على جواز تقديم خبر ليس في مثل هاتين الحالتين. والشيء إذا أشبه الشيء أخذ حكمه، كما هو معلوم في كتب النحو.

ومن المهم الإشارة إلى أن "ما" الحجازية العاملة عمل ليس، قد تدخل الباء على خبرها كدخولها على خبر ليس لإفادة التوكيد. ومن أمثلة دخول الباء على خبر ما: ما زيد بقائم، أي قائمًا. ومن ذلك قوله تعالى:﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ (يوسف: 17) أي: مومنًا. ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الشعراء: 114) أي: طاردَ المؤمنين (ابن يعيش، 2001: 118/2، 119). ومن المهم الإشارة إلى أن بعض العلماء ذهبوا إلى أن الباء الزائدة لا تدخل إلا في خبر ما الحجازية، ومنهم أبو علي كما ورد في (ابن مالك، 1982: 1/ 435) والزمخشري (1993، ص 112) الذي يقول "ودخول الباء في الخبر نحو قولك ما زيد بمنطلق إنما يصح على لغة أهل الحجاز لأنك لا تقول زيد بمنطلق". ويقوي ما ذهبنا إليه أيضًا تعليل الأنباري (1999، ص 119) لعملها عمل ليس؛ إذ يرى أن أحد السببين لعملها دخول الباء في خبرها، كما تدخل في خبر "ليس".

ب- ما غير العاملة

وهي الداخلة على الأفعال، فلا خلاف بين النحويين في أنها لا تعمل في هذه الحالة، وهي تدخل على الماضي والمضارع، نحو: ما قام زيدٌ، وما يقوم عمرو؛ فلا عمل لها في الفعلين، فالماضي باقٍ على مُضيِّه، والمضارع خَلُصَ للحال، هذا عند أكثر النحويين، وخالف ابن مالك فذهب إلى أنها قد تخلص المضارع للاستقبال على قلةٍ، نحو قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۚ﴾ [يونس: 15] واعتُرِض بأنهم جعلوها مخلصة للحال إذا لم توجد قرينة غيرها، تدل على غير ذلك (المرادي، 1992، ص329).

2. ما المصدرية

تنقسم ما المصدرية إلى: وقتية وغير وقتية، ويُقصد بالوقتية التي تُقدَّر بمصدر ينوب عن ظرف الزمان، ولذا تُسمَّى ظرفية (المرادي، 1992، ص330)، نحو قوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ [هود: 107]، ولا يشاركها حرف آخر من الحروف المصدرية خلافًا للزمخشري (المرادي، 1992، ص330، 331؛ الزمخشري، 1993، ص186).

وغير الوقتية، هي التي تقدر مع صلتها بمصدر، ولا يأتي قبلها الوقت، قال المرادي (1992): "وغير الوقتية: هي التي تقدر مع صلتها، بمصدر، ولا يحسن تقدير الوقت قبلها، نحو: يعجبني ما صنعت؛ أي: صنعك" مستشهدًا أيضًا في هذا السياق بقوله تعالى: ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾[التوبة: 25]، وقول الشاعر: [الوافر]

يســـــر المـــــرء مـــــا ذهـــــب الليـــــالي وكـــــان ذهـــــابهن، لـــــه، ذهابـــــا"

ومشيرًا إلى أن السهيلي اشترط لوقوعها مصدرية صلاحية وقوع ما الموصولة موقعها، وأن الفعل بعدها لا يكون خاصًّا. وردَّ المرادي قوله مُحتجًّا بالآية والبيت السابقين. وتُوصل المصدرية بالماضي والمضارع ولا توصل بالأمر. وفي وصلها بالجملة الاسمية خلافٌ، فمذهب سيبويه والجمهور أنها حرف فلا تُوصل بالجملة الاسمية لعدم عودة الضمير، وذهب الأخفش وابن السراج وبعض الكوفيين إلى أنها اسمٌ فتحتاج إلى ضمير. (ص331- 335)

3. ما الزائدة

تنقسم ما الزائدة إلى أربعة أقسام، هي:

1-أن تكون زيادتها للتوكيد فقط فدخولها كخروجها.

2- أن تكون كافَّة، وهي الداخلة على إنَّ وأخواتها، ورُبَّ، وكاف التشبيه.

3- أن تكون عِوضًا، وهي عِوض إمَّا عن فعلٍ، نحو: أمَّا أنت مُنطلقًا انطلقت، والأصل: لأنْ كُنت مُنطلقًا انطلقت، فهنا أكثر من حذف: حذفت لام التعليل وكان، فانفصل الضمير المتصل عن الفعل (كان) فجِئ بـ(ما) عِوضًا عنه. وإمَّا تكون عِوضًا عن الإضافة وهي الداخلة على (حيثما، وإذما).

4- أن تكون مُنبِّهة على وصفٍ لائقٍ، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: التهويل والتعظيم – التحقير – وقسم لا يُفيد تعظيمًا ولا تحقيرًا بل يُراد به التنويعُ. (المرادي، 1992؛ الهروي، 1993، ص79)

ثانيًا: ما الحرفية في ديوان حاتم الطائي

وردت (ما) الحرفية بدلالاتها المذكورة سابقًا في ديوان حاتم الطائي كما سيظهر من خلال تطبيقنا الآتي على أبيات منه:

1. (ما) النافية

أ- العاملة: عندما نقف على (ما) النافية العاملة عمل ليس على لغة الحجازيين، نجد الطائي (1986، ص13) يقول في مقطوعة: [الطويل]

ومـــا أنـــا بالماشـــي إلـــى بيـــت جـــارتي طروقًـــا أُحيهـــا كـــآخر جانـــبِ

فمـــا أنـــا بالسَّـــاعي بفضـــل زمامهـــا لتشـــرب مـــا فـــي الحـــوض قبـــل الركائـــبِ

ومـــا أنـــا بالطـــاوي حقيبـــة رحلهـــا لأركبهـــا خِفًّـــا و أتـــرك صـــاحبي

فـ(ما) في هذه الأبيات الثلاثة نافية عاملة عمل ليس على لغة الحجازيين، ولا يجوز القول إن "ما" هنا تميمية مهملة، والقول بأن ما في مثل هذه الحالة عاملة عمل ليس هو ما ذهب إليه بعض العلماء، كما سبقت الإشارة، ونحن نميل إلى هذا الرأي أيضًا. وعليه فاسمها في الأبيات الثلاثة الضمير المنفصل (أنا)، وخبرها على الترتيب: بالماشي، بالساعي، بالطاوي حقيبة رحلها، أي: الماشيَ، الساعيَ، طاويًا. ونفى عن نفسه في البيت الأول زيارة جارته كما لو أنه كان غريبًا وفي هذا دليلٌ على عِفَّته وصونه للجار.

وفي البيت الثاني نافية عاملة أيضًا، فهو يقول إنه لا يُمسك بفضل مقود ركائبه لتشرب قبل ركائب صاحبه؛ وهذا دليلٌ على كرمه، وإفادتها النفي واضحة في البيت الثالث، فهو يقول: إنه لا يطوي حقيبة رحله ليركب ويدع صاحبه يمشي (إبراهيم، 1995، ص13) وفيه دليلٌ على كرمه ونجدته.

ويظهر في هذه الأبيات أنه قرن الخبر بالباء لمنح المعنى مزيدًا من التوكيد على تحليه بالأخلاق والطباع الفاضلة، ومنها كرمه ونجدته.

وقال (الطائي، 1986، ص15): [الطويل]

ومـــا الخِصـــب للأضـــياف أن يكثـــر القِـــرى ولكنَّمـــــا وجـــــه الكـــــريم خَصـــــيبُ

فـ(ما) في هذا البيت نافية عاملة عمل ليس، اسمها (الخصب)، وخبرها المصدر المنسبك من أن والفعل وفاعله (أن يكثر القرى) والتقدير: وما الخصبُ للأضياف كثرةَ القِرى. فهو ينفي أن يكون الخصب للأضياف في كثرة القرى وإنَّما بشاشة وجه المرء هو الكرم الحقيقي، والعرب تقول في أمثالها: (بشاشة وجه المرء خيرٌ من القِرى) (الميداني، د.ت، ص219).

وجاءت عاملة في قوله (ص38): [الطويل]

و إنـــي لمُـــزجٍ للمَطـــي علـــى الوجـــا ومـــا أنـــا مـــن خلانـــك ابنـــة عفـــزرا

فـ (ما) هنا نافية عاملة، اسمها الضمير المنفصل (أنا)، وخبرها محذوف، والجار والمجرور (من خِلانك) متعلقان به، والتقدير: وما أنا كائنًا من خلانك... وهذا البيت له قصة من الأجدر الإشارة إليها ليتضح المعنى. والقصة، كما يحكيها العسكري (د.ت، ص 145، 146) هي أن ماوية بنت عَفْزَر كانت ملكة ذات سيادة، لا تتزوج إلا من ترتضيه لنفسها. وفي سعيها للبحث عن زوج يليق بها، أرسلت غلمانها ليأتوها بأجمل الرجال وأكثرهم وسامة في الحيرة. فوقع اختيارهم على حاتم الطائي، فلما أحضروه إليها، أعجبت به ودعته إلى فراشها.

على أن حاتمًا، الذي كان رمزًا للمروءة، رفض طلبها مشترطًا حضور صاحبيه اللذين كانا يرافقانه في سفره. استغربت الملكة من طلبه، وحاولت إغراءه بالخمر، إلا أنه كان يتظاهر بالشرب ويهريق الخمر خفيةً دون أن تراه في عتمة الليل.

وعندما أعياها أمره ووجدت منه صدودًا وعفة، وافقت على طلبه وأمرته بإحضار صاحبيه. ذهب حاتم إليهما وخيَّرهما بين أمرين أحلاهما مر: إما أن يصبحا عبدين لماوية يرعيان إبلها، أو أن تقتلهما. فاختار صاحباه الخيار الأول قائلين: "بعض الشر أهون من بعض". لكن حاتمًا لم يرضَ لهما هذا المصير، فحثهما على الهرب والنجاة معه، وأنشد بعض الأبيات، منها هذا البيت. والمعنى أنه معتاد على السفر الشاق، فهو يسوق الإبل "المطي" وهي تعاني من التعب وألم الحوافر "الوجى". ثم يوجه كلامه مباشرة إلى ماوية بنت عَفْزَر، مؤكدًا أنه ليس من نوع الرجال الذين يقبلون أن يكونوا من عشاقها أو أصدقائها المقربين "خلّانكِ" في ظل هذه الظروف المهينة.

- وقال (ص47): [البسيط]

قالـــتْ طُرَيفـــةُ: مـــا تَبقَـــى دراهِمُنـــا ومـــا بنـــا سَـــرَفٌ فيهـــا ولا خَـــرَقُ

يمكن عد (ما) في الشطر الثاني عاملة بناءً على رأي من أجاز تقديم خبرها، وعليه يكون الجار والمجرور متعلقين بخبر محذوف أي وما "مستقرًا" بنا سرفٌ، وسرفٌ اسمها مؤخر.

وهنا قصة يوردها ابن كثير (1986: 216/2) في البداية والنهاية قد تضيء لنا المعنى الذي قصده، إذ يروي أن حاتمًا الطائي وَفَدَ على النعمان بن المنذر، فأكرمه وأدناه، ثم زوده عند انصرافه جَمَلين ذهبًا وورِقًا غيرَ ما أعطاه من طرائف بلده،

فرحل، فلما أشرف على أهله تلقته أعاريب طيئ. قالت: يا حاتم أتيتَ من عند الملك بالغنى وأتينا من عند أهالينا بالفقر. فقال حاتم: هلم فخذوا ما بين يدي فتوزَّعوه، فوثبوا إلى ما بين يديه من حباء النعمان فاقتسموه. فخرجت إلى حاتم طريفة جاريتُه، فقالت له: اتق الله وأبقِ على نفسك، فما يدع هؤلاء دينارًا ولا دِرهمًا ولا شاة ولا بعيرًا. فأنشد شعرًا منه البيت السابق.

فهو يحكي موقف جاريته واستغرابها وضجرها من تصرف سيدها نافية بقاء المال حتى مع عدم الإسراف به وتبذيره.

والأمر كذلك في قوله (ص 50): [الوافر]

فـــــآب البرجـــــمي ومـــــا عليـــــه مِـــنَ اعْبـــاء الحمالـــة مـــن فتيـــل

فدخلت "ما" النافية هنا على الجملة الاسمية، ويمكن عدها عاملة، واسمها هنا متأخر "فتيل" المسبوق بحرف الجر الزائد (من)، وخبرها محذوف تقديره "كائنًا، باقيًا" والجار والمجرور (عليه) متعلق بذلك الخبر. والمعنى أن البرجمي عاد إلى قومه وقد تخلص تمامًا من عبء الدية، ولم يبقَ عليه منها شيء ولو كان ذلك الشيء صغيرًا كالفتيل (خيط نواة التمر).

وفي قوله (ص59): [الوافر التام]

ومـــا مـــن شِـــيمتي شـــتمُ ابـــن عمِّـــي ومـــا أنـــا مخلـــف مـــن يرتجينـــي

يمكن عد (ما) عاملة هنا حيث تقدَّمَ الخبر الذي حذف وبقي متعلقه (من شيمتي) وأخر الاسم (شتمُ)، فهو ينفي عن نفسه صفة شتم القريب.

وتقدُّم الخبر على اسم (ما) النافية مسألة خلافية، كما سبقت الإشارة، ويُنظَر أيضًا (المرادي، 1992، ص322).

أمثلة أخرى:

هنا أمثلة أخرى نعد فيها "ما" عاملة عمل ليس حسب رأي بعض العلماء وسبق أن رجحنا في الإطار النظري هذا الرأي. ومن ذلك قوله (ص24): [الطويل]

و إنـــي لعبـــد الضـــيف مـــا دام ثاويًـــا ومـــا فـــيَّ، إلا تلـــكَ، مـــن شـــيمةِ العَبـــدِ

حيث نفى عن نفسه كل صفات العبد مثبتًا تلك الصفة وهي إكرام الضيف، فهي هنا عاملة في رأينا. كأنه قال: وليس فيَّ إلا تلك الخلة أو الصفة.

ومثل ذلك قوله (ص50): [الطويل]

ومـــا مـــن لئـــيمٍ عالـــه الـــدهر مـــرَّة فيـــذكرَها إلا اســـتمال إلـــى البُخـــل

فاسم "ما" هنا هو (لئيم) المسبوق بحرف الجر الزائد (من) وجملة استمال إلى البخل خبرها في موضع نصب.

ومن ذلك قوله:(ص37): [الطويل]

ومـــا أهـــل طـــود مكفهـــر حصـــونه مـــن المـــوت إلا مثـــل مـــا حـــل بالصـــخر

ومـــا دارع إلا كـــآخرَ حاســـر ومـــا مقتـــر إلا كـــآخرَ ذي وفـــر

في هذين البيتين دخلت "ما" على الجمل الاسمية في ثلاثة مواضع (وما أهل طود- وما دارع - وما مقتر) أما الأخبار فهي على التوالي (إلا مثل ما حل- إلا كآخرَ حاسر- إلا كآخرَ ذي وفر).

ب- غير العاملة

في هذا المحور، ننظر في (ما) النافية غير العاملة في ديوانه، فمن ذلك قول حاتم (ص22): [الطويل]

بنـــوثعـــلٍ قـــومي، فمـــا أنـــا مُـــدَّعٍ ســـواهم إلـــى قـــوم، ومـــا أنـــا مُســـند

(فما أنا مُدَّعٍ سواهم، وما أنا مُسند) دخلت فيهما (ما) النافية على الجملة الاسمية المكونة من المبتدأ والخبر، على الترتيب: المبتدأ: الضمير المنفصل (أنا) في الشطرين والخبر: (مدع، مسند)، وهو هنا يتبع لغة تميم الذين يرون عدم إعمال (ما) عمل ليس، كما سبقت الإشارة، حيث دخلت (ما) على الجملة الاسمية ولم تؤثر في الخبر في الموضعين، إذ جاءا مرفوعين على الأصل. وحاتم هنا يفخر بانتسابه لقومه بني ثعل، وينفي عن نفسه أن يكون غير معروف النَّسب مُدَّعيًا لغير قبيلته.

وإذا نظرنا إلى عدم إعماله لـ"ما" هنا وإعماله لها أحيانًا، كما في الأمثلة الواردة في القسم الخاص بـ "ما العاملة عمل ليس" تبين لنا أن الشاعر الواحد قد ينوع في استعمالاته في مثل هذه الحالة، فتارة يُعمل وتارة يهمل، وبهذا يتضح أن القول بأن إعمالها لغة بعض القبائل كالحجازيين وتهامة وغيرهم قول غير دقيق بهذا الإجمال، والصحيح أن الإعمال والإهمال لهذه الأداة يخضع للاختيار الفردي وليس للاختيار الجماعي الذي يتخذ الطابع المؤسسي الصارم. وفي مسألة كهذه تبدو المسألة أكثر مرونة مما يصوره النحاة.

وقال (30): [الطويل]

أمَـــاوِيَّ! مـــا يُغْنِـــي الثَّـــرَاء عَـــنِ الفَتَـــى إذا حشـــرجَتْ يَوْمًـــا وضـــاقَ بِهَـــا الصَّـــدْرُ

فجاءت (ما) لنفي الفعل المضارع (يغني)، أي نفي أن يغني الثراء وكثرة المال عن الفتى... فهو هنا يفتخر بكرمه مخلِّدًا حكمة عميقة بنفي الغِنَى عن الإنسان ما لم يمنحه ذكرًا حسنًا.

وقال(ص31): [الطويل]

فمـــا زادنـــا بـــأوًا علـــى ذي قرابـــة غنانـــا ولا أزرى بأحســـابنا الفقـــر

فدخلت على الفعل (زادنا)، وهو فعل ماضٍ، وأفادت النفي، فصروف الدهر لا تزيدهم إلا فخرًا ومجدًا، فلم يكن لها عملٌ، وإنما وجودها أضاف معنى للبيت.

وقد تدخل "ما" النافية على الجملة الفعلية فتفيد النفي ما لم ينقض بناقض، فإن انتقض تحول المعنى من النفي إلى الإثبات ومن ذلك قوله في سياق إثبات الوفاء وحفظ العهد (ص43):[الوافر التام]

لَعَمْـــرُكَ، مَـــا أَضَـــاعَ بَنُـــو زِيَـــادٍ ذِمَـــارَ أَبِـــيهِمُ، فِـــيمَنْ يُضِـــيعُ

فهنا، يُقسم الشاعر مستعملًا النفي في "مَا أَضَاعَ" ليؤكد بقوة أن بني زياد قد صانوا شرف أبيهم وعهده ("ذماره"). هذا النفي لا ينكر تهمة قائمة بقدر ما هو إعلان صريح ومباشر عن فضيلة الوفاء، وهو أسلوب شائع في المدح لرفع شأن الممدوح من خلال نفي أي نقيصة محتملة عنه.

وفي سياق آخر يعبر عن الوقوف على الأطلال، موظفًا "ما" للتعبير عن شدة التغير وفقدان الملامح (ص 55): [الطويل]

وغَيَّرَهَـــا طُـــولُ التَّقَـــادُمِ والبِلَـــى فَمَـــا أَعْـــرِفُ الأَطْـــلَالَ إِلَّا تَوَهُّمَـــا

هنا، النفي في "فَمَا أَعْرِفُ" يتجاوز مجرد إنكار المعرفة البسيطة. إنه نفي للمعرفة اليقينية مقترنًا بالاستثناء "إلا توهمًا" لإثبات المعرفة الظنية، ليؤكد أن الديار قد تغيرت إلى درجة لم يعد التعرف إليها ممكنًا إلا من خلال الظن والتخيل، مما يعمق الإحساس بالزمن وآثاره.

وقد تدخل "ما" النافية وتفيد الإيجاب، كما في قوله (ص22،25): [الطويل]

فمـــا رمتـــه حتـــى أزحـــت عويصـــه وحتـــى عـــلاه حالـــك اللـــون أســـود

فمـــا رمتـــه حتـــى تركـــت عويصـــه بقيـــة عـــرف يحفـــز التـــرب مـــذود

فـ(ما) النافية دخلت على الفعل (رمته) في البيتين والفعل رمته مستعمل بمعنى برحت، ولكنه لا يرد في لغة العرب إلا مع النفي "لأنه مشبه بقولهم: ما فتئ وما برح وما زال، وهذه المنفيات بمعنى الإيجاب" (المهلبي، 2003، ص 266) ولهذا فإن معناه في بيتَي حاتم الإيجاب/ الإثبات، ويؤكد ذلك قوله (حتى أزحت عويصه، وحتى تركت، وحتى علاه) وهو ما يسهم في تحويل المعنى من النفي إلى الإثبات.

ويورد المعري (1979، ص 256، 257) هذا البيت لأبي نواس:

فما رمتُهُ حتى أتَى دونَ ما حَوتْ بِمينِـــي حتـــى رِبطَتِـــي وردَائِـــي

ويعلق بأن هذا الفعل مستعمل في بيت أبي نواس بمعنى الإيجاب معللًا ذلك بأنه "يحسُن أن تقول ما رمت من موضع كذا حتى فعلت، ولا يحسن أن تقول رمت من موضع كذا بغير جحد [نفي]". ومنه قول حاتم في البيتين السابقين.

وفي قوله (33): [الطويل]

ومـــا تشـــتكيني جـــارتي غيـــر أنهـــا إذا غـــاب عنهـــا بعلهـــا، لا أزورهـــا

حيث ينفي الشاعر في قوله "ومَا تَشْتَكِينِي" أي شكوى قد تصدر من جارته تجاهه بسبب تقصير أو منع معروف؛ لكنه يستعمل أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم، فيكشف أن "التقصير" الوحيد الذي يمكن أن يُنسب إليه هو امتناعه التام عن زيارتها في غياب زوجها، وهو نفي يُثبت من خلاله قمة العفة وصيانة حق الجوار.

وفي سياق ذي صلة يقول (ص 33): [الطويل]

فَـــلَا وَأَبِيـــكِ مَـــا يَظَـــلُّ ابْـــنُ جَـــارَتِي يَطُـــوفُ حَـــوَالَيْ قِـــدْرِنَا مَـــا يَطُورُهَـــا

هنا، يقسم حاتم أن ابن جارته لا يقترب من قدره طائفًا مترقبًا، ليس لأنه يمنعه، بل لأن كرمه يضمن وصول الطعام إليه دون الحاجة إلى هذا السلوك. فالنفي في "مَا يَطُورُهَا" (لا يقترب منها) هو في حقيقته إثبات لكرم يغني الجار عن السؤال أو الترقب.

ويتجلى توظيف "ما" لإثبات الكرم المطلق في قوله (ص46): [المتقارب التام]:

قُـــدُورِي بِصَـــحْرَاءَ مَنْصُـــوبَةٌ ومَـــا يَنْـــبحُ الكَلْـــبُ أَضْـــيَافَهُ

فالنفي في "ومَا يَنْبَحُ الكَلْبُ" لا يعني أن كلابه لا تنبح بطبيعتها، بل هي كناية فنية بليغة عن كثرة الضيوف وتتابعهم، حتى ألِفَت الكلاب رؤيتهم فلم تعد تنبح في وجوههم. وبذلك، يتحول نفي النباح إلى إثبات للكرم الفياض الذي جعل بيته مقصدًا دائمًا للضيوف.

يستعمل حاتم "ما" النافية للتعبير عن شجاعته وقوة بأسه في قوله (ص38): [الطويل]:

ومـــا أنكحونـــا طـــائعين بنـــاتهم ولكـــن خطبناهـــا بأســـيافنا قســـرا

فقوله "مَا أَنْكَحُونَا طَائِعِينَ" ليس إقرارًا بالرفض، بل هو تمهيد لإثبات القوة والمنعة، فزواجهم لم يكن بمنة من أهل الفتاة، بل كان نتيجة لانتصارهم وفرض كلمتهم بقوة السيف.

- ومن ذلك قوله (ص40): [الطويل]

فمـــا زادهـــا فينـــا السِّـــباء مذلـــة وَلَا كلفـــت خبْـــزًا وَلَا طبخـــت قِـــدْرا

- وفي سياق الفخر بالنفس والاعتماد على الذات، يقول (ص50):[الطويل]

ومـــا ضَـــرَّنِي أن سَـــارَســـعْدٌ بأهلِـــه و أفْرَدَنـــي فـــي الـــدارِلَـــيْسَ معـــي أهلـــي

ينفي الشاعر عن نفسه أي ضرر أو نقص لحق به بعد رحيل أهله، ففي قوله "ومَا ضَرَّنِي" دلالة واضحة على اعتداده بنفسه وقدرته على بناء مجده منفردًا دون الاعتماد على قبيلته.

يتضح من خلال هذه الشواهد أن "ما" النافية في شعر حاتم الطائي أداة فنية غنية تتجاوز وظيفتها النحوية البسيطة. لقد دخلت على الأفعال الماضية (مثل: تشتكيني، أنكحونا، ضرَّني، أضاع)، والمضارعة (مثل: ينبح، يظل، يَطور)، وفي كل مرة كانت تحمل دلالة عكسية تثبت ما هو أعمق من مجرد النفي؛ فهي تنفي التهمة لتثبت الفضيلة، وتنفي الفعل لتؤكد قيمة أخلاقية سامية، مما يجعلها سمة أسلوبية مميزة في شعره تعكس ثراء تجربته الإنسانية وقيمه الراسخة.

ويمكن رصد المزيد من الشواهد التي تعزز فهمنا للعمق الدلالي الذي يمنحه حاتم الطائي لأداة النفي "ما"، حيث تتنوع سياقاتها لتشمل إثبات الكرم المستمر، والتعبير عن الحيرة، وتأكيد الوفاء.

ففي سياق الكرم المتواصل، يقول الشاعر (ص35): [الطويل]

وكُنَّـــا بِـــأَرْضٍ مَـــا يَغِـــبُّ غَـــدَاؤُهَا إِنَّ الغَـــــدَاءَ بِـــــأَرْضِ ثَـــــوْبٍ عَـــــائِمُ

النفي في قوله "مَا يَغِبُّ غَدَاؤُهَا" (أي لا يتأخر أو ينقطع) لا يقتصر على مجرد نفي الانقطاع، بل هو إثبات لديمومة الكرم واستمراريته، حيث يكون الغداء حاضرًا بشكل يومي وثابت، على عكس أرض "ثوب" التي يندر فيها الطعام. وبذلك، تتحول "ما" إلى أداة لتأكيد حالة من الرخاء والثبات الكرمي.

وتأتي "ما" أيضًا لتأكيد الاكتفاء ومنع الحاجة، كما في وصفه لجارتهم (ص 43): [الوافرالتام]

وجَـــــارَتُهُمْ حَصَـــــانٌ لَـــــمْ تُزَنَّـــــى وطَاعِمَـــــةُ الشِّـــــتَاءِ، فَمَـــــا تَجُـــــوعُ

النفي في "فَمَا تَجُوعُ" هو النتيجة المنطقية لكونها "طاعمة الشتاء"، وهو إثبات قاطع لحالة الشبع والاكتفاء التي تعيشها في كنفهم ورعايتهم، مما يعزز صورة الكرم الذي يضمن الأمان والرخاء لمن يجاورهم.

من خلال هذه الأمثلة المتنوعة، يتضح أن "ما" النافية ليست مجرد أداة نحوية جامدة في شعر حاتم، بل هي عدسة فنية مرنة يستعملها ببراعة لتسليط الضوء على القيم التي يؤمن بها، سواء كانت كرمًا أو وفاءً أو عفة، مما يمنح نصوصه ثراءً دلاليًا لافتًا.

2. (ما) المصدرية

تُعد "ما" المصدرية أداة نحوية أخرى وظفها حاتم الطائي في شعره، وتأتي على نوعين: المصدرية الظرفية (الوقتية)، التي تُقدّر بـ "مدة"، والمصدرية غير الظرفية، التي تُؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر صريح. وقد ورد كلا النوعين في ديوانه، مما أثرى نصوصه بدلالات زمنية وحدثية دقيقة.

أ- "ما" المصدرية الظرفية (الوقتية)

يستعمل حاتم هذا النوع من "ما" لربط الفعل بمدة زمنية محددة، مما يضفي على المعنى دلالة الاستمرارية طوال تلك المدة. ومن أبرز شواهدها قوله في سياق رفضه لخيانة الجار (ابن كثير، د.ت، ج2، ص215): [الوافر التام]

أَأَفْضَـــحُ جَـــارَتِي وأَخُـــونُ جَـــارِي؟ معـــاذَ اللهِ أَفْعَـــلُ مَـــا حَيِيـــتُ

فالأداة "ما" في قوله "مَا حَيِيتُ" هي مصدرية ظرفية، حيث تُؤوَّل مع الفعل "حييت" بمصدر مسبوق بظرف زمان، والتقدير: "معاذ الله أن أفعل ذلك مدةَ حياتي". وهذا التوظيف يؤكد على ثبات المبدأ الأخلاقي واستمراره مدى الحياة.

ويتكرر هذا الاستعمال مع الفعل الناسخ "دام"، كما في قوله (ص23): [الطويل]

فأقسمت، لا أمشي إلى سرّجارة مدى الدهر، ما دام الحمام يغردُ

هنا، تُستعمل "مَا دَامَ" لإنشاء رابط زمني أبدي، فالتقدير هو: "مدةَ دوامِ تغريد الحمام"، وهو تعبير شاعري للدلالة على الاستمرارية المطلقة، مما يمنح قسمه قوة وثباتًا. وتجدر الإشارة إلى أن اعتبار "ما" الداخلة على "دام" مصدرية ظرفية هو أحد الآراء في المسألة الخلافية التي أشار إليها ابن هشام (د.ت، ص 239).

ويبلغ هذا التوظيف ذروته في إعلان الولاء المطلق للضيف في قوله (المبرد، 1997: 133/2؛ الجاحظ، 1968، ص532): [الطويل]

وإنّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ ثَاوِيًا ومَا شِيَمَةٌ لِي غَيْرَهَا تُشْبِهُ العَبْدَا

فقوله "مَا دَامَ ثَاوِيًا" يحدد بوضوح أن خضوعه وتكريسه لخدمة الضيف مستمر مدةَ إقامته (ثوائه)، مما يحول الكرم من فعل عابر إلى حالة دائمة ومستمرة طوال فترة الضيافة.

ب- "ما" المصدرية غير الظرفية

يظهر هذا النوع في سياقات لا يُقصد بها الظرفية الزمنية، بل تحويل الفعل إلى اسم صريح. ومن ذلك قوله وهو يصف حاله بعد فقد عزيز، (الطائي، ص26) [الطويل]:

ذريني وحالي، إن مالَكِ و افرٌ وكلُّ امرِئٍ جَارٍ علَى مَا تعوَّدَا

حيث يظهر لنا أن "ما" موصول حرفي ويعرف الموصول الحرفي بأنه "ما أُوِّل مع ما يليه بمصدر ولم يحتج إلى عائد" (المرادي، 2008: 1/ 416).

وعليه فـ "ما" في هذا البيت موصول حرفي بمعنى "الذي" أي: وكل امرئ جارٍ على التعود الذي تعوده، وتُؤول "ما" وما بعدها بمصدر ولكنه لا يحتاج إلى عائد، أي: وكل امرئٍ جارٍ على تعوُّدِه. ويشبه هذا الاستعمال قوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة: 69] فإن "الذي" هنا موصول حرفي والمعنى: الخوض الذي خاضوه، ويؤول: كخوضهم (المرادي، 2008: 1/ 417).

مما سبق، يتضح أن حاتمًا الطائي قد استثمر الإمكانات النحوية والدلالية لـ "ما" المصدرية بنوعيها، فاستخدمها لتقييد الأفعال بظروف زمنية محددة تؤكد على ديمومة قيمه، كما استخدمها لتحويل الأفعال إلى مصادر مجردة تصف الأحداث التي يمر بها.

3. (ما) الزائدة

إلى جانب "ما" النافية و"ما" المصدرية، تبرز "ما" الزائدة على نحوٍ لافت في ديوان الطائي، حيث تؤدي وظائف دلالية ونحوية دقيقة. وتأتي على نوعين رئيسين: "ما" الزائدة غير الكافة، التي تفيد التوكيد دون أن تغير في وضع ما بعدها من ناحية الإعراب، و"ما" الزائدة الكافة، التي تتصل ببعض الحروف والأفعال فتكفها عن العمل غالبًا.

أ- "ما" الزائدة غير الكافة

يكثر هذا النوع في شعر حاتم، وغالبًا ما تقترن بأدوات الشرط (لا سيما "إذا")، أو ترد في سياقات الفخر والمدح لتعزيز المعنى وتقويته.

أ) الاقتران بـ "إذا" الشرطية

يُعد اتصال "ما" الزائدة بـ "إذا" الشرطية الظاهرة الأبرز في هذا الباب، حيث تعمل على توكيد ارتباط الشرط بالجواب. ومن شواهد ذلك قوله (ص 24): [الطويل]

إِذَا مَـــا صَـــنَعْتِ الـــزَّادَ، فَالْتَمِســـي لَـــه أَكِـــيلًا، فَـــإِنِّي لَسْـــتُ آكِلَـــهُ وَحْـــدِي

وقوله (ص 23): [الطويل]

إِذَا مَـــا البَخِيـــلُ الخِـــبُّ أَخْمَـــدَ نَـــارَهُ أَقُـــولُ لِمَـــنْ يَصْـــلَى بِنَـــارِيَ: أَوْقِـــدُوا

وقوله (ص 51): [البسيط التام]

إِنَّ البَخِيـــلَ، إِذَا مَـــا مَـــاتَ، يَتْبَعُـــهُ سُـــوءُ الثَّنَـــاءِ، وَيَحْـــوِي الـــوَارِثُ الإِبِـــلَا

في هذه الأبيات، نجد أن "ما" الزائدة بعد "إذا" لا تغير من بنية الجملة، فدخولها كخروجها من الناحية الإعرابية، لكنها تضيف زخمًا دلاليًا، فتؤكد على حتمية وقوع الجواب عند تحقق الشرط، مما يعزز من قوة المبدأ الذي يطرحه الشاعر، سواء كان الكرم المطلق أم احتقار البخل، كما أنها تؤدي وظيفة عروضية تتمثل في المحافظة على الوزن الشعري، فكثيرًا ما تحضر لتمنع كسر الوزن؛ فعلى سبيل المثال، ينتمي هذا البيت إلى بحر البسيط، وعند حذف ما الزائدة فيه تنكسر التفعيلة التالية.

ب) التوكيد في سياقات أخرى

قد تأتي "ما" الزائدة في غير اقترانها بـ "إذا" لغرض التوكيد والتعظيم، كما في قوله (ص19): [الطويل]

نِعِمَّـــا مَحَـــلُّ الضَّـــيْفِ، لَـــوْ تَعْلَمِينَـــهُ بِلَيْـــلٍ، إِذَا مَـــا اسْتَشْـــرَفَتْهُ النَّـــوَابِحُ

فاتصال "ما" بفعل المدح "نِعْمَ" يقوي المعنى ويعظّمه، ليصبح مدحًا مطلقًا لمكانة الضيف.

ب- "ما" الزائدة الكافة عن العمل

يظهر هذا النوع عندما تتصل "ما" الزائدة بـ "إنّ" وأخواتها، فتبطل عملها في نصب المبتدأ ورفع الخبر، وتسمح لها بالدخول على الجمل الفعلية. ومن أمثلته قوله (ص23): [الطويل]

فَقُلْـــتُ: دَعِينِـــي، إِنَّمَـــا تِلْـــكَ عَـــادَتِي لِكُـــلِّ كَـــرِيمٍ عَـــادَةٌ يَسْـــتَعِيدُهَا

هنا، دخلت "ما" على "إنَّ" فكفتها عن العمل، وبقيت الجملة الاسمية "تِلْكَ عَادَتِي" على إعرابها الأصلي (مبتدأ وخبر).

وأيضًا في قوله (ص24): [الكامل التام]

هَـــا إِنَّمَـــا مُطِـــرَتْ سَـــمَاؤُكُمُ دَمًـــا وَرَفَعْـــتَ رَأْسَـــكَ مِثْـــلَ رَأْسِ الأَصْـــيَدِ

فـ "ما" زائدة، كَفَّت "إنَّ" عن عملها وهيأت لدخولها على الجملة الفعلية "مَطَرَتْ سَمَاؤُكُمُ"، وقد نص النحاة على أنه إذا دخلت (ما) الزائدة على (إن) الناسخة وأخواتها أبطلت عملها إلا (ليت) فيجوز فيها الإعمال، والإهمال، وهو مذهب سيبويه وأكثر النحويين عدا الزجاج وابن السراج، وأيدهما ابن مالك، فذهبوا إلى جواز الأمرين في جميع الحروف الناسخة (ابن عقيل، 1980: 374/1).

ومن صور زيادة "ما" عنده زيادتها قبل المضارع المؤكد بنون التوكيد، كما في قوله (ص223): [الطويل]

قَلِيـــلٌ بِـــهِ مَـــا يَحْمَـــدَنَّكَ وَارِثٌ إِذَا سَـــاقَ مِمَّـــا كُنْـــتَ تَجْمَـــعُ مَغْنَمَـــا

فـ "ما" هنا زائدة لتوكيد المعنى، وفقًا لرأي الجمهور الذي لا يجيز دخول نون التوكيد على المضارع المسبوق بما النافية، و"وارث" هو فاعل الفعل "يحمدنّك". (أبو حيان، 2024: 2/ 657).

وقد علق العيني (2010: 4L 1803) على هذا البيت بأن المعنى: "يحمدنك وارثك بعد استيلائه على مالك حمدًا قليلًا".

على أن هناك من يرى أن ما النافية قد تدخل على المضارع المؤكد بنون التوكيد مشبهين النفي بالنهي؛ "لأنَّ النهي نفيٌ، كما أنَّ الأمر إيجابٌ..، وجعلوا من ذلك قول الشاعر [من الطويل]، (ابن يعيش، 2001: 169/5):

وَمِـــــن عِضَـــــةٍ مَـــــا يَنْبُـــــتَنَّ شَـــــكِيرُها"

ونحن نرجح رأي الجمهور ليس لأنه رأي معظم النحويين فحسب بل لأن المعنى الذي يقصده حاتم الطائي، وهو المعروف بالكرم والحث عليه، يتماشى على نحو أفضل مع فكرة "قلة الحمد" وليس "انعدامه تمامًا". فهو لا يقرر حقيقة مطلقة بأن كل وارث لا يحمد مورثه، بل يصف سلوكًا غالبًا لكي يحفز على الإنفاق. ومن هنا ففكرة أن الحمد قد يقع ولكنه قليل جدًا هي أكثر واقعية وبلاغة في هذا السياق.

ويرجح هذ الرأي وجود شواهد نثرية أخرى مثل "بجهد ما تبلغنَّ"، و"بعينٍ ما أرينَّك" كما في ابن يعيش (2001: 169/5) فـ"ما" هنا زائدة قطعًا، وزيادتها هنا، مع قلته، يجعل من السهل قبول زيادتها في بيت الطائي. أما ما استدل به ابن يعيش في البيت السابق فنحن نرى أن "ما" زائدة وليست نافية. وقد أورد ابن الناظم (بدر الدين بن مالك، 2000، ص 442) هذا البيت مع بيت الطائي للتمثيل على أن "ما" زائدة.

المبحث الثاني: (ما) الاسمية

أولاً: أقسام (ما) الاسمية

تتعدد أقسام (ما) الاسمية وتتنوع مواقعها الإعرابية. وقد حصرها النحاة في سبعة أقسام رئيسة، كما أشار إلى ذلك المرادي (1992، ص 336-341)، المرادي (2008، ج 1، ص 433)، والهروي (1993، ص 75):

1. الموصولة: وهي بمعنى "الذي" وفروعه، نحو قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النَّحْل: 49].
2. الشرطية: وتقتضي فعلين، فعل شرط وجوابه، نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ [البَقَرَة: 197].
3. الاستفهامية: ويُطلب بها تعيين أمر ما، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: 17]. غير أن ما الاستفهامية قد تقترن بـ (ذا) فتصبح (ماذا) وهنا يضعنا النحاة أمام صورتين لـ (ماذا)، الأولى: أن تكون كلمة واحدة وصورتها (ماذا)، وتكون استفهامية. والثانية: أن تكون مكونة من كلمتين (ما + ذا) وهنا تكون (ما) وحدها استفهامية، وتكون (ذا) موصولة بمعنى الذي. (المرادي، 1992، ص 239-241؛ النحاس، 1421: 108/1، 110، 236/3؛ ابن هشام، 1985، ص 395؛ الهمذاني، 1427: 207/1). غير أن المرادي (1992) يرى أن فيها أربعة أوجه، قال: " قد اتضح، بما تقدم أن ماذا تحتمل أربعة أوجه: أحدها أن تكون ما استفهامية وذا اسم إشارة. وثانيها أن تكون ما استفهامية وذا اسم موصول. وثالثها أن يكون المجموع اسمًا واحدًا للاستفهام. ورابعها أن يكون المجموع اسمًا واحدًا خبريًا. ويعرب في كل موضع على ما يليق به" (ص 241).

قال النحاس(1421هـ) عند إعراب قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البَقَرَة: 215]، "ماذا يُنْفِقُونَ «ما» في موضع رفع بالابتداء و«ذا» الخبر، وهو بمعنى الذي وحذفت الياء لطول الاسم أي ما الذي ينفقونه، وإن شئت كانت «ما» في موضع نصب بينفقون و«ذا» مع «ما» بمنزلة شيء واحد"(1/108- 109).

4. النكرة الموصوفة (التامة): وهي التي تُفسَّر بـ"شيء"، نحو قولهم: "مررتُ بما معجبٍ لك" (المرادي، 2008: 1/ 433)، أي: مررتُ بشيءٍ معجبٍ لك (المرادي، 1992، ص 337).

5. النكرة غير الموصوفة: وتأتي في سياقات محددة، منها باب التعجب، وباب "نِعْمَ وبِئْسَ"، وبعد الأفعال، حيث لا يكون لها محل من الإعراب على مذهب الفراء الذي يرى أن ما بعدها يُعرب فاعلاً (المرادي، 1992، ص 337-338).
6. الصفة: وذلك في قولهم: "لأمرٍ ما جَدَعَ قَصِيرٌ أنفَه" (المرادي، 2008: 1/ 433؛ الميداني، د.ت: 2/ 196). وقد علَّق المرادي (1992) على هذا الاستعمال بقوله: "قال المصنف: والمشهور أن "ما" في هذا المثال ونحوه زائدة مبنية على وصل لائق بالمحل" (ص 339).
7. المعرفة التامة: وتكون كذلك في باب "نِعْمَ وبِئْسَ" على رأي سيبويه (1988: 1/ 73، 3/ 156)، وفي قولهم: "إنّي مِمَّا أن أفعل" على ما ذكره السيرافي (المرادي، 1992، ص 341).

ثانيًا: (ما) الاسمية في ديوان حاتم الطائي

1. تجليات (ما) الموصولة في ديوان حاتم الطائي

عند استقراء شعر الطائي، يظهر أن (ما) الموصولة هي الأكثر حضورًا وتوظيفًا ضمن أنواع (ما) الاسمية. وتتنوع مواقعها الإعرابية بشكل لافت، كما يتضح من النماذج الآتية:

في محل رفع:

اسمًا لـ(كان) كقوله (ص 15):

فلو كانَ ما يُعطَى رياءً لأمسكتْ ... به جَنَباتُ اللومِ يَجْذِبْنَهُ جَذْبَا

وقال (ص 53):

وما كانَ بي ما كانَ، والليلُ مُلْبِسٌ ... رِواقٌ له فوقَ الإكامِ، بَهِيمُ

خبرًا للمبتدأ كقوله (ص 22):

يَرُدُّ علينا ليلةً بعد يَوْمِها ... فلا نحنُ ما نَبْقَى ولا الدهْرُ يَنْفَدُ

وقوله (ص 39):

فلا هي ما ترعى جميعًا عِشارُها ... ويُصْبِحُ ضيفي ساهِمَ الوجهِ أغْبَرَا

فاعلًا كقوله (ص 47):

إنْ يَفْنَ ما عِنْدَنَا فَاللَّهُ يَرْزُقُنَا ... وَمَنْ سِوَانَا وَلَسْنَا نَحْنُ نَرْتَزِقُ

في محل نصب:

مفعولًا به كقوله (ص 26):

أَرِينِي جَوَادًا ماتَ هَزْلًا لعلَّنِي ... أَرَى ما تَرَيْنَ أو بخيلًا مُخَلَّدَا

وقوله (ص 55):

دَوَارِجُ قد غَيَّرْنَ ظاهرَ تُرْبِه ... وغَيَّرَتِ الأيَّامُ ما كانَ مُعْلَمَا

اسمًا لـ(أنَّ) كقوله (ص 30):

تَرى أنَّ ما أهلكتُ لم يكُ ضَرَّني ... وأنَّ يدي ممَّا بخلتُ به صِفْرُ

في محل جر:

بحرف الجر كقوله (ص 29):

ولكنني ممَّا أصابَ عشيرتي وقومي بأقرانٍ حوالهمُ الصبرُ

وقوله (ص 46):

و إنني لمَجْزِيٌّ بما أنا كاسبٌ وكلُّ امرئٍ رهنٌ بما هو مُتْلِفُ

وقوله (ص 50):

وأجعلُ مالي دونَ عِرضيَ جُنَّةً لنَفسي وأستغني بما كانَ من فَضْلي

بالإضافة كقوله (ص 50):

سيَكفي ابتنائي المجدَ سَعْدُ بن حَشرجٍ وأحمِلُ عنكم كلَّ ما ضاعَ من ثِقْلِ

خبر (إنَّ)، ومجرور بحرف الجر كقوله (ص 56):

فإنَّكُما لا ما مَضَى تُدْرِكانِهِ ولَسْتُ على ما فاتَني مُتَنَدِّما

ففي صدر البيت، وقعت (ما) في محل رفع خبر (إن)، وفي عجزه جاءت في محل جر بحرف الجر (على).

صفة كقوله (ص 56):

إذا شئتَ ناويتَ امرأَ السوءِ ما نزا إليكَ ولا طامَتْ لئيمًا مُلَطَّما

جاءت (ما) الموصولة في محل نصب صفة لـ(امرأ السوء)، والتقدير: امرأ السوء الذي نزا.

2. (ما) الاستفهامية

لا يقتصر حضور (ما) الاسمية في ديوان حاتم الطائي على النوع الموصول، بل يمتد ليشمل (ما) الاستفهامية التي وظفها الشاعر للتعبير عن أغراض دلالية وبلاغية متعددة، تتجاوز مجرد طلب العلم بشيء مجهول وقت الطلب، كما في دلالته الأصلية.

أ. الاستفهام الحقيقي

يستعمل الطائي الاستفهام على معناه الأصلي طالبًا الجواب، كما في قوله (ص 49):

أتاني مِنَ الدَّيَّانِ، أمسِ، رِسالةٌ وغَدْرًا بحَيّ ما يقولُ مُواسِلُ؟

هما سألاني ما فعلتُ؟ و إنني كذلك عمَّا أَحْدَثا أنا سائلُ

فـ(ما) في البيت الأول في محل نصب مفعول به مقدم للفعل (يقول)، وفي البيت الثاني مفعول به مقدم للفعل (فعلت)، والاستفهام في الموضعين على حقيقته.

ب. الاستفهام التقريري والإنكاري

يستعمل حاتم الاستفهام ليقرر حقيقة راسخة أو لينكر أمرًا، كما في قوله (ص 31):

وما ضَرَّجارًا يا ابْنَةَ القومِ فاعْلَمِي يُجاوِرُني أَلَّا يكونَ له سِتْرُ؟

فالاستفهام هنا ليس حقيقيًا، بل هو تقريري يهدف إلى تأكيد وصون عرضه وعفته تجاه جيرانه، وهو المعنى ذاته الذي يكرره في قوله (ص 32):

ما ضَرَّجارًا لي أُجاوِرُهُ أَلَّا يَكُونَ لِبابِهِ سِتْرُ؟

وفي كلا البيتين، تُعرب (ما) الاستفهامية اسمًا مبنيًا في محل رفع مبتدأ، خبره الجملة الفعلية (ضَرَّ...).

ج. الاستفهام المركب بـ(ذا)

يظهر هذا التركيب في قول الطائي (ص 22):

ومـــاذا يُعَـــدِّي المـــالُ عنـــكَ وجَمْعُـــهُ؟ إذا كـــــانَ مِيراثًـــــا، ووارِاكَ لاحِـــــدُ

الاستفهام هنا تقريري أيضًا، يقرر حقيقة فناء المال وعدم جدواه بعد الموت. أما تركيب "ماذا" فقد سبقت الإشارة إلى أن فيه وجهين مشهورين: أولهما، اعتبار "ماذا" كلمة واحدة للاستفهام. وثانيهما، اعتبارها مركبة من "ما" الاستفهامية و"ذا" الموصولة (المرادي، 1992، ص 239-241؛ النحاس، 1421: 108/1). وأن المرادي (1992) أوصل أوجهها المحتملة إلى أربعة، بإضافة احتمال كون "ذا" اسم إشارة، أو كون "ماذا" اسمًا خبريًا (ص 241).

وعليه، يمكن تخريج البيت على وجهين إعرابيين: فإما أن تكون "ماذا" كلها اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، والجملة الفعلية (يُعَدِّي المالُ) خبره. أو تكون "ما" مبتدأ، و"ذا" الموصولة خبره، وجملة الصلة لا محل لها.

د. دلالات وأغراض بلاغية أخرى لـ "ما" الاستفهامية

وظف الطائي (1986) "ما" الاستفهامية في دلالات وأغراض بلاغية أخرى، منها:

التحسر: ومن ذلك قوله (ص 37):

بَكَيْـــتَ، ومـــا يُبْكِيـــكَ مِـــنْ طَلَـــلٍ قَفْـــرِ؟ بِسَـــيْفِ اللِّـــوَى بَـــيْنَ عُمُـــورَان فَـــالغَمْرِ

الاستفهام في "ما يبكيك" يتضمن معنى إضافيًا جديدًا، إذ يفيد التحسر والألم عند الوقوف على أطلال ديار المحبوبة.

اللوم والعتاب: قالت جاريته طريفة، كما يروي الشاعر (ص 47):

قالَـــتْ طُرَيْفَـــةُ: مـــا تَبْقَـــى دَراهِمُنـــا ومـــا بنـــا سَـــرَفٌ فِيهـــا ولا خُـــرُقُ

استفهام الجارية هنا يحمل معنى اللوم والعتاب على كرمه الذي تراه إسرافًا.

الحكمة: قال (ص 51):

مَهْـــلًا نَـــوَارُ أَقِلِّـــي اللَّـــوْمَ والعَـــذَلَا ولا تَقُـــولِي لِشَـــيْءٍ فـــاتَ: مـــا فَعَـــلَا؟!

يأتي الاستفهام "ما فعلا؟!" ضمن حكمة تدعو إلى عدم التحسر على ما فات، فاللوم لا يغير من الأمر شيئًا.

يتضح من خلال هذه الشواهد أن (ما) الاستفهامية في شعر حاتم الطائي أداة لغوية مرنة، تتجاوز وظيفتها النحوية لتصبح وسيلة فنية للتعبير عن أغراض دلالية وبلاغية متعددة، من التقرير والإنكار إلى التحسر واللوم والحكمة.

3. (ما) الاسمية في باب (نعم وبئس)

يُلحظ من خلال استقراء النماذج الواردة لـ "ما" الاسمية في ديوان حاتم الطائي، أنها استُخدمت بشكل ملحوظ بصيغتها الموصولة والاستفهامية. أما ورودها في باب المدح والذم، فقد اقتصر على بيت واحد في قوله (ص 19):

نِعِمَّـــا مَحَـــلُّ الضَّـــيْفِ، لَـــو تَعْلَمِينَـــهُ بِلَيْـــلٍ، إِذَا مَـــا اسْتَشْـــرَفَتْهُ النَّـــوَابِحُ

وقد مرَّ بنا اختلاف النحاة في إعراب "ما" الداخلة على (نِعْمَ وبِئْسَ)، حيث انقسموا إلى آراء عدة، أبرزها:

1. أنها نكرة غير موصوفة: فتكون في موضع نصب على التمييز، والفاعل ضمير مستتر، والمخصوص هو الاسم المرفوع بعدها (المرادي، 1992، ص 337-338). وهو أحد قولي الأخفش ومن تبعه (الأخفش، 1411: 1/ ص 192).

2. أنها معرفة تامة: فتكون هي الفاعل. وهو قول جمهور النحاة (الأخفش، 1411: 192/1؛ ابن السراج، د.ت: 99/1؛ سيبويه، 1988: 156/3؛ السيرافي، 2008: 73/3؛ ابن عقيل، 1980: 126/2؛ ابن مالك، 1990: 12/2؛ المبرد، د.ت: 174/4؛ ابن هشام، 1985، ص 391).
3. أنها رُكِّبت مع الفعل: فلا موضع لها من الإعراب، ويكون الفاعل هو الاسم الذي يليها. وهو ما ذهب إليه الفرّاء في أحد قوليه (المرادي، 1992، ص337).

وبناءً على ما تقدَّم، يمكن تخريج "ما" في قول الطائي: (نِعِمَّا مَحَلُّ الضَّيْفِ) وفقًا للآراء السابقة؛ فإما أن تكون في محل نصب على التمييز، أو في محل رفع فاعل، أو لا محل لها من الإعراب.

وخلاصة القول هي أن استعراض "ما" وأنواعها في ديوان حاتم الطائي يُظهر ورودها بنوعيها الحرفي والاسمي، شاملةً معظم تقسيماتها، مما يدلل على ما لهذه الأداة من أثر بالغ في تشكيل الدلالة والتركيب النحوي.

النتائج:

أظهرت دراسة توظيف "ما" في ديوان حاتم الطائي تنوعًا واسعًا في وظائفها الحرفية والاسمية؛ فالحرفية جاءت نافية ومصدرية وزائدة (كافة وغير كافة)، بينما الاسمية توزعت بين الموصولة والشرطية والاستفهامية والنكرة الموصوفة وغير الموصوفة والصفة والمعرفة التامة. وأسهم هذا التنوع في إثراء الدلالات الشعرية وجعلها أكثر انسجامًا مع البناء اللغوي للنص.

وتبين أن "ما" الزائدة خدمت المعنى بالتوكيد والتعظيم، وأدت وظيفة عروضية في حفظ الوزن، كما كشفت النتائج عن مرونة في استعمال "ما" الحجازية، إذ لم يكن إعمالها أو إهمالها مرتبطًا بلهجة قبيلة بعينها كما ذهب بعض النحاة، بل خضع لاختيارات الشاعر الأسلوبية. فقد أعملها حاتم أحيانًا وأهملها أحيانًا أخرى في سياقات متقاربة، وهو ما يثبت أن التعامل معها كان مسألة فنية أكثر من كونه التزامًا لهجيًا. وتدعم هذه النتيجة شواهد من شعراء آخرين مثل الفرزدق التميمي الذي أعملها في بعض المواضع رغم نسبتها إلى لغة الحجاز. كما أظهرت الدراسة أن "ما" الاستفهامية تجاوزت وظيفتها الأصلية إلى معاني التقرير والإنكار، وأن "ما" المصدرية وردت ظرفية وغير ظرفية، مع ندرة في غير الظرفية.

المراجع

الأخفش، سعيد بن مسعدة. (1990). *معاني القرآن* (هدى محمود قراعة، تحقيق). مكتبة الخانجي.

الأعلم الشنتمري، يوسف بن سليمان. (1994). *تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب* (زهير عبد المحسن سلطان، تحقيق) (ط2). مؤسسة الرسالة.

الأنباري، عبد الرحمن بن محمد أبو البركات. (1999). *أسرار العربية*. دار الأرقم بن أبي الأرقم.

الجاحظ، عمرو بن بحر. (1968). *البيان والتبيين* (فوزي عطوي، تحقيق). دار صعب.

أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي. (2024). *التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل*. دار القلم.

الذهبي، محمد بن أحمد. (د.ت.). *سير أعلام النبلاء* (شعيب الأرناؤوط، مشرف). مؤسسة الرسالة.

الزركلي، خير الدين بن محمود. (2002). *الأعلام* (ط. 15). دار العلم للملايين.

الزمخشري، محمود بن عمر. (1993). *المفصل في صنعة الإعراب* (علي بو ملحم، تحقيق). مكتبة الهلال.

ابن السراج، محمد بن السري. (د.ت.). *الأصول في النحو* (عبد الحسين الفتلي، تحقيق). مؤسسة الرسالة.

سيبويه، عمرو بن عثمان. (1988). *الكتاب* (عبد السلام محمد هارون، تحقيق، ط. 3). مكتبة الخانجي.

السيرافي، الحسن بن عبد الله. (2008). *شرح كتاب سيبويه* (أحمد حسن مهدلي وعلي سيد علي، تحقيق). دار الكتب العلمية.

الطائي، حاتم. (1986). *ديوان حاتم الطائي* (أحمد رشاد، شارح ومقدم). دار الكتب العلمية.

إبراهيم، عباس. (1995). *شرح ديوان حاتم الطائي*. دار الفكر العربي.

ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن. (1405هـ). *المساعد على تسهيل الفوائد* (محمد كامل بركات، تحقيق). جامعة أم القرى.

ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن. (1980). *شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك* (محمد محيي الدين عبد الحميد، تحقيق) (ط. 20). دار التراث.

العيني، بدر الدين محمود بن أحمد. (2010). *المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية (شرح الشواهد الكبرى)* (علي محمد فاخر وآخرون، تحقيق). دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم. (1423هـ). *الشعر والشعراء*. دار الحديث.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (1986). *البداية والنهاية*. دار الفكر.

ابن مالك، محمد بن عبد الله. (1990). *شرح تسهيل الفوائد* (عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، تحقيق). هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.

ابن مالك، محمد بن عبد الله. (1982). *شرح الكافية الشافية* (عبد المنعم أحمد هريدي، تحقيق). جامعة أم القرى_ مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي.

المبرد، محمد بن يزيد. (1997). *الكامل في اللغة والأدب* (محمد أبو الفضل إبراهيم، تحقيق) (ط. 3). دار الفكر العربي.

المبرد، محمد بن يزيد. (د.ت.). *المقتضب* (محمد عبد الخالق عضيمة، تحقيق). عالم الكتب.

المرادي، الحسن بن قاسم. (1992). *الجنى الداني في حروف المعاني* (فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، تحقيق). دار الكتب العلمية.

المرادي، الحسن بن قاسم. (2008). *توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك* (عبد الرحمن علي سليمان، تحقيق). دار الفكر العربي.

المعري، سليمان بن علي. (1979). *تفسير أبيات المعاني من شعر أبي الطيب المتنبي* (مجاهد محمد محمود الصواف ومحسن غياض عجيل، تحقيقان). دار المأمون للتراث.

المهلبي، أحمد بن علي. (2003). *المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي* (عبد العزيز المانع، تحقيق) (ط.2). مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

الميداني، أحمد بن محمد. (د.ت.). *مجمع الأمثال* (محمد محيي الدين عبد الحميد، تحقيق). دار المعرفة.

النحاس، أحمد بن محمد. (1421هـ). *إعراب القرآن* (عبد المنعم خليل إبراهيم، تحقيق). دار الكتب العلمية.

الهروي، علي بن محمد. (1993). *الأزهية في علم الحروف* (عبد المعين الملوحي، تحقيق). مجمع اللغة العربية.

ابن هشام، عبد الله بن يوسف. (1985). *مغني اللبيب عن كتب الأعاريب* (مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، تحقيق) (ط. 6). دار الفكر.

ابن هشام، عبد الله بن يوسف. (د.ت.). *شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب* (عبد الغني الدقر، تحقيق). الشركة المتحدة للتوزيع.

ابن يعيش، يعيش بن علي. (2001). *شرح المفصل* (إميل بديع يعقوب، مقدم). دار الكتب العلمية.

References

Al-Akhfash, Saʿīd ibn Masʿada. (1990). *Maʿānī al-Qurʾān* (Hudā Maḥmūd Qarāʿa, Ed.). Maktabat al-Khānjī.

Al-Aʿlam al-Shantamarī, Yūsuf ibn Sulaymān. (1994). *Taḥṣīl ʿayn al-dhahab min maʿdin jawhar al-adab fī ʿilm majāzāt al-ʿArab* (Zuhayr ʿAbd al-Muḥsin Sulṭān, Ed.; 2nd ed.). Muʾassasat al-Risāla.

Al-Anbārī, ʿAbd al-Raḥmān ibn Muḥammad Abū al-Barakāt. (1999). *Asrār al-ʿarabiyya*. Dār al-Arqam ibn Abī al-Arqam.

Al-Jāḥiẓ, ʿAmr ibn Baḥr. (1968). *Al-Bayān wa-l-tabyīn* (Fawzī ʿAṭwī, Ed.). Dār Ṣaʿb.

Abū Ḥayyān al-Andalusī, Muḥammad ibn Yūsuf. (2024). *Al-Tadhyīl wa-l-takmīl fī sharḥ kitāb al-tashīl*. Dār al-Qalam.

Al-Dhahabī, Muḥammad ibn Aḥmad. (n.d.). *Siyar aʿlām al-nubalāʾ* (Shuʿayb al-Arnāʾūṭ, Superv.). Muʾassasat al-Risāla.

Al-Zarkalī, Khayr al-Dīn ibn Maḥmūd. (2002). *Al-Aʿlām* (15th ed.). Dār al-ʿIlm li-l-Malāyīn.

Al-Zamakhsharī, Maḥmūd ibn ʿUmar. (1993). *Al-Mufaṣṣal fī ṣanʿat al-iʿrāb* (ʿAlī Bū Malḥam, Ed.). Maktabat al-Hilāl.

Ibn al-Sarrāj, Muḥammad ibn al-Sarī. (n.d.). *Al-Uṣūl fī al-naḥw* (ʿAbd al-Ḥusayn al-Fatlī, Ed.). Muʾassasat al-Risāla.

Sībawayh, ʿAmr ibn ʿUthmān. (1988). *Al-Kitāb* (ʿAbd al-Salām Muḥammad Hārūn, Ed.; 3rd ed.). Maktabat al-Khānjī.

Al-Sīrāfī, al-Ḥasan ibn ʿAbd Allāh. (2008). *Sharḥ kitāb Sībawayh* (Aḥmad Ḥasan Mahdalī & ʿAlī Sayyid ʿAlī, Eds.). Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.

Al-Ṭaʾī, Ḥātim. (1986). *Dīwān Ḥātim al-Ṭāʾī* (Aḥmad Rashād, Ed. & Intro.). Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.

Ibrāhīm, ʿAbbās. (1995). *Sharḥ Dīwān Ḥātim al-Ṭāʾī*. Dār al-Fikr al-ʿArabī.

Ibn ʿAqīl, ʿAbd Allāh ibn ʿAbd al-Raḥmān. (1405 AH). *Al-Musāʿid ʿalā tashīl al-fawāʾid* (Muḥammad Kāmil Barakāt, Ed.). Jāmiʿat Umm al-Qurā.

Ibn ʿAqīl, ʿAbd Allāh ibn ʿAbd al-Raḥmān. (1980). *Sharḥ Ibn ʿAqīl ʿalā Alfiyyat Ibn Mālik* (Muḥammad Muḥyī al-Dīn ʿAbd al-Ḥamīd, Ed.; 20th ed.). Dār al-Turāth.

Al-ʿAynī, Badr al-Dīn Maḥmūd ibn Aḥmad. (2010). *Al-Maqāṣid al-naḥwiyya fī sharḥ shawāhid shurūḥ al-Alfiyya (Sharḥ al-shawāhid al-kubrā)* (ʿAlī Muḥammad Fākher et al., Eds.). Dār al-Salām.

Ibn Qutayba, ʿAbd Allāh ibn Muslim. (1423 AH). *Al-Shiʿr wa-l-shuʿarāʾ*. Dār al-Ḥadīth.

Ibn Kathīr, Ismāʿīl ibn ʿUmar. (1986). *Al-Bidāya wa-l-nihāya*. Dār al-Fikr.

Ibn Mālik, Muḥammad ibn ʿAbd Allāh. (1990). *Sharḥ tashīl al-fawāʾid* (ʿAbd al-Raḥmān al-Sayyid & Muḥammad Badawī al-Mukhtūn, Eds.). Hajr li-l-Ṭibāʿa wa-l-Nashr.

Ibn Mālik, Muḥammad ibn ʿAbd Allāh. (1982). *Sharḥ al-kāfiya al-shāfiya* (ʿAbd al-Munʿim Aḥmad Harīdī, Ed.). Jāmiʿat Umm al-Qurā – Markaz al-Baḥth al-ʿIlmī wa-Iḥyāʾ al-Turāth al-Islāmī.

Al-Mubarrad, Muḥammad ibn Yazīd. (1997). *Al-Kāmil fī al-lugha wa-l-adab* (Muḥammad Abū al-Faḍl Ibrāhīm, Ed.; 3rd ed.). Dār al-Fikr al-ʿArabī.

Al-Mubarrad, Muḥammad ibn Yazīd. (n.d.). *Al-Muqtaḍab* (Muḥammad ʿAbd al-Khāliq ʿUẓayma, Ed.). ʿĀlam al-Kutub.

Al-Murādī, al-Ḥasan ibn Qāsim. (1992). *Al-Jinā al-dānī fī ḥurūf al-maʿānī* (Fakhr al-Dīn Qabāwa & Muḥammad Nadīm Fāḍil, Eds.). Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.

Al-Murādī, al-Ḥasan ibn Qāsim. (2008). *Tawḍīḥ al-maqāṣid wa-l-masālik bi-sharḥ Alfiyyat Ibn Mālik* (ʿAbd al-Raḥmān ʿAlī Sulaymān, Ed.). Dār al-Fikr al-ʿArabī.

Al-Maʿarrī, Sulaymān ibn ʿAlī. (1979). *Tafsīr abyāt al-maʿānī min shiʿr Abī al-Ṭayyib al-Mutanabbī* (Mujāhid Muḥammad Maḥmūd al-Ṣawwāf & Muḥsin Ghiyāḍ ʿAjīl, Eds.). Dār al-Maʾmūn li-l-Turāth.

Al-Muhallabī, Aḥmad ibn ʿAlī. (2003). *Al-Māʾākhidh ʿalā shurāḥ dīwān Abī al-Ṭayyib al-Mutanabbī* (ʿAbd al-ʿAzīz al-Mānīʿ, Ed.; 2nd ed.). Markaz al-Malik Fayṣal li-l-Buḥūth wa-l-Dirāsāt al-Islāmiyya.

Al-Maydānī, Aḥmad ibn Muḥammad. (n.d.). *Majmaʿ al-amthāl* (Muḥammad Muḥyī al-Dīn ʿAbd al-Ḥamīd, Ed.). Dār al-Maʿrifa.

Al-Naḥḥās, Aḥmad ibn Muḥammad. (1421 AH). *Iʿrāb al-Qurʾān* (ʿAbd al-Munʿim Khalīl Ibrāhīm, Ed.). Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.

Al-Harawī, ʿAlī ibn Muḥammad. (1993). *Al-Azhiyya fī ʿilm al-ḥurūf* (ʿAbd al-Muʿīn al-Mulūḥī, Ed.). Majmaʿ al-Lugha al-ʿArabiyya.

Ibn Hishām, ʿAbd Allāh ibn Yūsuf. (1985). *Mughnī al-labīb ʿan kutub al-aʿārīb* (Māzin al-Mubārak & Muḥammad ʿAlī Ḥamdallāh, Eds.; 6th ed.). Dār al-Fikr.

Ibn Hishām, ʿAbd Allāh ibn Yūsuf. (n.d.). *Sharḥ shudhūr al-dhahab fī maʿrifat kalām al-ʿArab* (ʿAbd al-Ghanī al-Daqar, Ed.). Al-Sharika al-Muttaḥida li-l-Tawzīʿ.

Ibn Yaʿīsh, Yaʿīsh ibn ʿAlī. (2001). *Sharḥ al-Mufaṣṣal* (Īmīl Badīʿ Yaʿqūb, Intro.). Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.